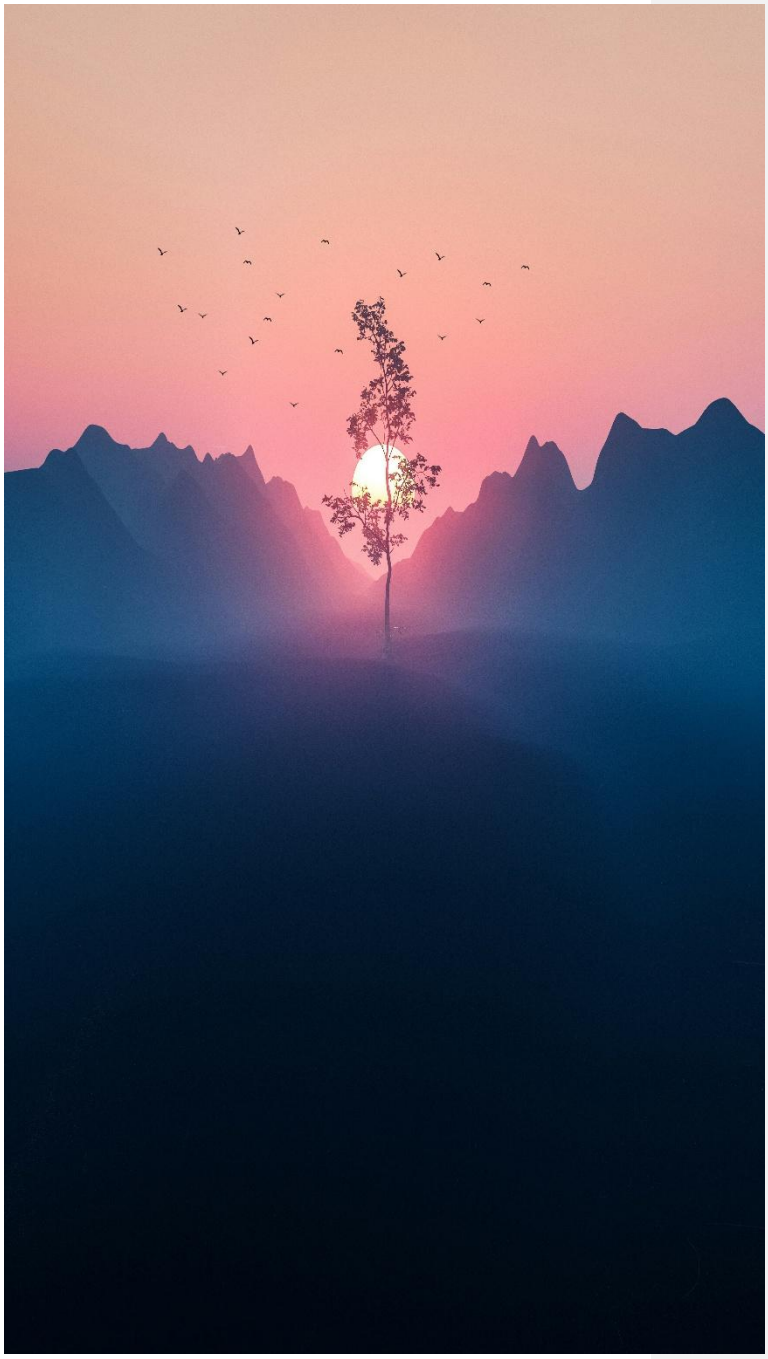

تفريغ محاضرة

آدم عليه السلام
وقصة البداية

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٣/٣/٢٦ هـ

آدم عليه السلام وقصة البداية

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي، له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أما بعد ..

فمن خلال قراءة القرآن الكريم نجد كثيرًا من القصص التي يتكرر ذكرها بين صورة وأخرى، وإحدى هذه القصص التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم هي قصة آدم عليه السلام، فقد تكررت في أكثر من ثماني سور، وهذا التكرار ينبّهنا إلى أن هنالك دروس لابد أن نستفيد منها من خلال هذه القصة،

حديثنا اليوم عن قصة آدم عليه السلام وما حدث معه ومع إبليس عليه لعنة الله، ودخوله للجنة فيها من العبر ومن الفوائد ما جعل القرآن يكررها على مسامعنا أكثر من ثماني مرات، وفي كل مرة نجد تفصيلًا قد يختلف عن التفصيل الآخر..

ابتدأت القصة بخلق الله عز وجل لآدم عليه السلام بيده، ومجرد خلق آدم عليه السلام بهذه الكيفية هو نوع من التشريف والتكريم لبني آدم، فآدم عليه السلام لما خلقه الله عز وجل خلقه من طين، وقدّر له أن يمكث في الجنة مخلوقًا من طين من غير روح ثم نفخ الله فيه من روحه، فقال الله عز وجل لملائكته كما جاء ذكره في القرآن: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [سورة البقرة٣٠]

وفي آية أخرى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)[سورة ص ٧١ - ٧٣]

فالملائكة كلهم سجدوا لآدم عليه السلام، و حينما نقول آدم عليه السلام الذي خلقه الله بيده وأسجد الملائكة له، فإن سجود الملائكة لآدم لم يكن تعبدًا لآدم، -أي أن آدم ليس إلها- وإنما سجدوا لآدم طاعة لله عز وجل، وهذا السجود هو نوع من التكريم والتشريف لبني آدم على هؤلاء الملائكة (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[سورة ص ٧٣ - ٧٤]

و في آيات أخرى : (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) [سورة الكهف٥٠]

إذا كلّ الآيات تتواتر على أن إبليس رفض السجود ورفض طاعة أمر الله عز وجل، فبمجرد رفضه السجود صار من الكافرين ومن المقبوحين ومن الملعونين ومن المطرودين من رحمة الله عز وجل، وهنا يرد سؤال: هل إبليس كان من الملائكة أم كان من الجن؟ أرجح الأقوال أنه كان من الجن بدليل الآية الواردة في سورة الكهف التي نقرؤها كل أسبوع (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۚ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ) [سورة الكهف٥٠]

حينما رفض إبليس السجود سأله الله عز وجل: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) [سورة الأعراف ١٢] فما يمكن لله عز وجل أن يأمر بأمر ويأتي خلق من خلقه فيعصي أمره هذا لا يمكن والملائكة الذين يعرفون الله عز وجل، يعرفون أنهم لا يمكن أن يرفضوا لله عز وجل أمرًا ما،

فقال: (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) [سورة الأعراف ١٢] هُنا حكّم إبليس عقله، وظهر حسده وغيرته في الأمر الذي جاءه من السماء، فهنا كانت مشكلة إبليس أنه غار وحسد آدم عليه السلام، فمَن يكون هذا الذي خُلِق من طين وأنا من نار!

وهذا دليلٌ ثانٍ على أن إبليس ليس من الملائكة؛ لأن الملائكة مخلوقات نورانية خلقت من نور وأما إبليس فأصله من نار، إذًا عندما رفض إبليس السجود جاءت الأوامر إلى إبليس: (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) [سورة الأعراف ١٣] ،

ملحظ: قال له اهبط منها أي من السماء العليا من السماء التي فيها الجنة إلى السماء الدنيا، ليس فقط هبوطًا بل اخرج منها تمامًا إنك من الصاغرين أي من الأذلاء الحقيرين، ولذلك من تواضع لله رفعه ومن تكبر على الله وضعه، وهذه قاعدة ومنهج للحياة..

وهنا إبليس لما عرف أنه هالك وأنه الآن ملعون ومطرود من رحمة الله عز وجل، ومصيره إلى النار، طلب من الله عز و جل طلبًا واحدًا فقط: (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) [سورة الحجر ٣٦]، يعني أنا سأدخل النار وأُعذّب، لكن يا رب أنا لا أريد دخول النار الآن، أريد منك أن تمهلني فلا تنتهي حياتي الآن فأمهلني إلى يوم يبعثون، من هم الذين يبعثون؟ آدم وذريته..

وكانت هذه نيّة إبليس أن يرافق هؤلاء الخلق الذين كُرّموا عليه طيلة حياتهم إلى يوم القيامة، فاستجاب الله عز وجل له لحكمة يريدها سبحانه ولتبدأ قصة الخير والشر والحق والباطل وليبدأ الآن الجهاد الإنساني والبشري ضد الشياطين من الإنس والجن، فقال له الله عز و جل: (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ) [سورة الحجر ٣٧]

فقال إبليس مصرحًا بما سيفعل: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) [سورة الأعراف ١٦]

وفي آية أخرى: (قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا) [سورة الاسراء ٦٢]

يعني هؤلاء بني آدم الذين كُرموا عليّ سأقعدن لهم صراطك المستقيم، لن أدعهم يعبدونك حق العبادة بل سأزين لهم هذا الصراط المستقيم، كأنه يعني يريد أن يقول أن هؤلاء البشر ليسوا مفضّلين وسترى أن كثيرًا منهم سيغوون ويتبعون إرشاداتي وما سأمليه عليهم،

ولذلك قال الله عز وجل له: (قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا(٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) [سورة الاسراء٦٣ - ٦٥]

هذه القصة تُبيّن لكل من أغواه الشيطان كيف هو غوى، ومن يتّبع بهواه، وقد جعلها الله واضحة كل الوضوح في القرآن، وقال أيضًا: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) [يس ٦٠]

يعني يوم القيامة سوف يسأل الله تعالى أسئلة واضحة ومصيرية، فأنتم عرفتم القصة وأصل الغواية ومع ذلك ما زلتم تتبعون الشيطان..

ابتدأت الآن القصة بين آدم وإبليس

وأضمر إبليس العداوة لآدم وذريته كلهم من بعده بعد طرده من الجنة، وجاء الأمر إلى آدم عليه السلام: (وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا) [البقرة ٣٥]

هذا مشهد آدم مع إبليس قد انتهى، الآن مشهد جديد يكرم الله فيه آدم فيقول: اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما، يعني هنيئًا طيبًا مريئًا لك الجنة هذه الواسعة بكل ما فيها بكل نعيمها وأشجارها وثمراتها وقصورها وأنهارها كلها لك بما فيها من النعيم (وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ) يعني كل ما في الجنة حلالًا حلالًا مريئًا لكن هذه الشجرة بالذات لا تقربها (وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) [البقرة ٣٥]

(فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ) [البقرة ٣٦]

(فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) [البقرة ٣٧]

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة ٣٨]

الستة آيات هذه تختصر لنا القصة بأجمعها،

حينما أخبره الله أن الجنة بما فيها هي لك هنيئًا مريئًا إلا هذه الشجرة، (فأزلهما الشيطان عنها) وعند مشهد الشجرة نجد في آية أخرى (وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّصِحِينَ) [الأعراف ٢١]

على ماذا قاسمهما؟ (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ) [طه ١٢٠] ، فإبليس دخل على آدم وحواء من زاوية أخرى فلم يأمرهم بعصيان ربهم لا، ولكن أخبره قال له هل تريد أن تكون مع الملائكة الذين هم أقرب الخلق إلى الله عز وجل والذين يعبدون الله ليلًا و نهارًا،

فآدم عليه السلام رأى أن الملائكة هي التي تحيط بالله عز وجل وأنهم يخدمونه وأنهم يستمعون لأمره، فأراد أن يكون له هذه المنزلة العلية، فقال له إبليس تريد أن تكون ملك أو تكون من الخالدين؟ أرأيت هذه الجنة ونعيمها ألا تخاف أن تموت وتنتهي كل هذه الطيبات حولك؟ أمّا لو أنك ذقت قليلًا من هذه الشجرة فستتحول إلى ملاك أو يكون لك هذا الخلد الأبدي،

وما زال الشيطان يقاسمهم يعني يقسم بالله عز وجل على ذلك، وبالطبع لم يشأ آدم أن يفرط بالجنة، فمع كل هذا الرغد في العيش والنعيم الذي هو فيه فإن الله عز وجل قد تكفل له بها أنه لا يجوع فيها ولا يعرى، وأنه لا يظمأ فيها ولا يضحى، فأكله معه لا يسعى حتى ولا يجتهد في إيجاد الأكل الموجود، ولا يتعرى فيها فهو لابس وهو بزينته طوال الوقت، وأيضا هو لا يظمأ فيها ولا يضحى فليس هنالك حر شديد ولا برودة شديدة.

فما النعيم الذي سيكون بعد هذا كله!

فجاءه الشيطان ووسوس لهما، الآن آدم عليه السلام بخبرته البسيطة مع الخلق وهو للتو مخلوق فهو لم يكن يظن أن أحدا يحلف بالله كاذبا، يعلم أن الله ربه فما كان يظن أن أحدا ما ممكن أنه يكذب على الله عز وجل أو أن يحلف به كاذبا.

والشيطان -أيًا كانت الروايات في كيفية وسوسته لآدم - سواء أنها كانت مجرد وسوسة أو دخل مع حيّة داخل الجنة لأن الشيطان مطرود من الجنة، أيًا كانت إلا أنه جاء وأخبر آدم عليه السلام أنها هذه شجرة الخلد وملك لا يبلى، وحينما حلف له بالله ظن آدم أنه لا يحلف بالله كاذبًا،

وهذا يذكرنا بقصة عبدالله بن عمر كان عنده مجموعة من الخدم والعبيد فكان إذا تبيّن على أحد منهم شيء من الصلاح، يعني رآه يصلي يصوم يطيل الصلاة فإنه كان يعتقه لوجه الله، فعرفوا ذلك العبيد والموالي الذين عنده فصاروا يطيلون بالصلاة أمامه ويصلون الليل ويظهرون أنهم أفضل الناس فكان كلما رأى من واحد منهم اجتهاد

أعتقه لوجه الله، فقال له الناس إنهم يخدعونك، لقد علموا أن من يتظاهر بالصلاح فإنك تعتقه، فقال: من خدعنا بالله انخدعنا له،

والمقصد من ذكر هذه الحادثة أن هناك أناس وقلوب لا تظن أن أحدًا قد يكذب على الله عز وجل، ولذلك جاء في الأثر أن عيسى بن مريم رأى شخصًا يسرق فقال له أسرقت؟ قال: لا والله الذي لا إله إلا هو، قال كفاك آمنت بالله وكذبت عيني، رآه يسرق أمامه ومع ذلك حينما حلف له بالله اتهم نفسه هو وقال آمنت بالله وكذبت عيني. عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللَّهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ» [أخرجه ابن ماجه في سننه، وقال الألباني: صحيح]

الحلف بالله ليس أمرًا هينًا أن تقول والله كذا وكذا، حتى حلف اللغو لابد أن يُتنبّه إليه؛ لأنك إذا حلفت بالله فيجب أن تكون صادقًا في الموطن الذي ذكرت فيه اسم الله وإذا حلف لك بالله فلترضَ، من حُلِف له بالله فليرضَ ومن لم يرضَ فليس من الله في شيء في ذلك.

ولذلك قال ابن القيم -رحمه الله- في قصة عيسى: والحق أنه قام في قلبه أن الله أجل من أن يحلف أحدٌ به كاذبًا..

نعود لقصة آدم عليه السلام، ماذا حصل لآدم حينما حلف له الشيطان بالله أنه له ناصح وأن هذه شجرة الخلد؟

الذي حصل أن آدم وزوجه أكلا منها، قال الله عز وجل عن لحظة الأكل :(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) [الأعراف:٢٢]

فدلاهما أي أنزلهما من المرتبة العلية التي كان فيها آدم عليه السلام وزوجه، أي كأنه تدلى إلى المرتبة الأسفل منها، بغرور طمعا بشيء لم يكن لينتفع بهما،

طيب ما الذي حصل بعد ذلك؟

قال تعالى : (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا)[الأعراف:٢٠] وقال تعالى:(فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) [الأعراف:٢٢]

أول شيء حصل لما ذاقَ من الشجرة يعني فقط وجد طعمها في فمه، لا أنه استمر بالأكل منها، أنه أتاه العقاب مباشرة فأول ما وضع هذه الثمرة في فمه، مجرد أن دخلت وفعل فعل الذنب، حتى تساقطت عنهم ملابسهم، فقد كان طوال الوقت مكسيًا داخل الجنة، فأول عقوبة ضربت على آدم عليه السلام وزوجه أنه تعرى فنزلت عنهم الملابس وما كان يسترهما، وتأملوا هذه العقوبة التي نزلت عليهم! عقوبة التعري! وتأملوا حال الناس التي تتنافس في التعري اليوم!

قال تعالى : (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ) [طه : ١٢١]

طفقا يخصفان أي قاموا يأخذون من الشجر ويحاولون أن يلصقوا من أوراقها على جسمهما ويغطون فيها عوراتهم، وهذه فطرة البشرية الحياء المتأصل فيهم أنه لا ينبغي التعري، ومع أن آدم كان مع زوجه يعني هما لا يستتران من بعضهما البعض لكن هذه فطرة بني آدم الستر أوّلًا.

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ [ص: ١٤]: عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا كَانَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ؟ قَالَ: «إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَيَنَّهَا أَحَدٌ فَلَا يَرَيَنَّهَا» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا؟ قَالَ: «اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ» [أخرجه أبو داود في سننه، وقال الألباني: حسن]

فالعورة للرجل ما بين السرة والركبة أو ما سواهما، وهذا إرشاد من النبي عليه الصلاة والسلام ألا يراها أحد، هناك ضرورات معينة يجوز عندها هذا الكشف كالعلاج ويكون الكشف بمقدار الفحص في المنطقة المعينة ليس كل شيء يتعرى، فما يجوز للواحد أن يُعرّي جسمه كاملًا إلا لحاجة كالاستحمام مثلًا، أما غير هذا فهو ينكشف عند شياطين الجن.

قال تعالى : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) [البقرة:٣٦]

ملحظ: كلمة " إِلَىٰ حِينٍ" هنا فائدة لغوية لما قال الله عز وجل (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) يقول المفسرون أن في (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) حصرًا لحياة الناس في الأرض فقط على كوكب الأرض فقط، فأي تداعيات حول إمكانية عيش البشر في كوكب آخر فهي باطلة،

فإذًا (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ) ليس أبديًا ولا خلودًا دائمًا، إنما البشرية ستقضي حياتها هنا " إِلَىٰ حِينٍ" أي إلى موعد معين يعلمه الله عز وجل كلنا نتجه إلى هذا الموعد ولذلك جميع الأمم بالكفار واليهود والنصارى والمجوس والهندوس كلهم يعلمون أن البشرية تتجه إلى النهاية والكل يعلم الآن أننا نعيش الأحداث الأخيرة على كوكب الأرض لأن كل شيء له دلائل ومؤشرات، يقول الله عز وجل عنها: (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) [الأعراف:٢٥]

عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» [أخرجه مسلم، صحيح]

قال تعالى : (فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ) [الأعراف :٢٢]

جاءهم النداء من الله عز وجل

قال تعالى : (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) [الأعراف:٢٢]

أما نهيتكم عن هذه الشجرة؟

قال تعالى:(اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ) [البقرة :٣٥]

لك كل شيء، فقط هذه الشجرة لا تقربها، فما شققت عليك بأمر، فقط أمرتك ألا تقرب هذه الشجرة فأين الصعوبة ألا تأكل من هذه الشجرة؟

ملحظ: القصة مليئة بالدروس في أن الأمر لم يكن صعبًا وفي المقابل لديك عدد من الأشجار لا منتهية في الجنة تتلذذ من ثمارها، فما الذي جعلك تصرّ على هذه الشجرة الوحيدة المنهية؟

لكن إنما هو الشيطان عندما يزيّن الحرام لآدم ولذريته من بعده ويوهمك ألا شيء في الدنيا سيسعدك غيره، حينها سينحصر في مخيلتك أنك إن لم تستعمل هذا الشيء فلن تكون سعيدًا أبدًا، هذا دور الشيطان في حياة الآدمي أن يجلب له الذنب، ويزين له الحرام حتى يوقعه فيه، وبالفعل أوقع آدم عليه السلام فيه، وحينها يشعر الشيطان ألا همّ عليه، فخرج وترك آدم، أهم شيء أنه أوقع آدم عليه السلام بالذنب، قال الله عز وجل عن هذه اللحظة في آية أخرى : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) [طه :١١٥]

السبب الذي من أجله عصى آدم ربه أنه نسي العهد بينه وبين الله، من كثرة إغواء الشيطان له وإغرائه إياه بالخلد والملك الذي لا يبلى، والقسم على ذلك، فأحدث هذا بلبلة في داخله حتى أكل من الشجرة،

وحين أكل وسمع نداء المعاتبة من الله سبحانه (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌ مبين؟) ماذا قال آدم عليه السلام هل استكبر؟ هل قال ربي أنظرني إلى يوم يبعثون؟ لا، لم يستكبر، وهذه الأفضلية لبني آدم عن الشياطين،

بل أقرّ آدم بذنبه وطلب المغفرة، قال (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[سورة الاعراف ٢٣] مباشرة اعترف بذنبه، لم يكابر ولم يجادل،

لذلك لما قال الله عزوجل في آية أخرى (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [سورة البقرة ٣٧] والكلمات المذكورة هنا فسرها القرآن في آية أخرى حينما قال (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [سورة الاعراف ٢٣]

وهي نفسها التي قالها موسى حينما قتل تلك النفس بالخطأ (قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) [القصص ١٦] فغفر الله له،

وهي دعوة ذا النون حينما دخل في بطن الحوت فقال (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)[سورة الانبياء ٨٧]. هذه هي اعترافات الأنبياء بالذنب بلا مجادلة ولا تكبّر، وهذا كان سبب توبة الله عليهم.

سنتناول الآن ١٠ فوائد سريعة من هذه القصة:

الفائدة الأولى:

أنّ المذنبين من بني آدم كثير، ولكن لا يوفق للتوبة إلا من يجتبيه الله، والمجتبى من الله هو المصطفى عند الله عزوجل،

ودليل ذلك حينما قال الله عزوجل (وعصى آدم ربه فغوى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) [سورة طه ١٢٢] والاجتباء هذا كناية عن توبة الله على آدم، ويتوب الله على العبد لشيء علمه الله منه وأحبّه منه كعمل طيب أو خبيئة،

فلذلك يوفقه الله للتوبة ويزينها له، لذلك قال الله تعالى لنبيه: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) هذا الشعور بأن الله يهدي من يشاء و يتوب على من يشاء يجعل الإنسان إذا تلطخ بالذنب لا يأنس ولا يفرح بذنبه، بل يكون قلقًا طوال الوقت،

فالواجب على العبد ألا يتعايش مع الذنب والمعصية، بل إنك لو فعلت الذنب وبقي قلبك بعدها يرجف، وما زال قلبك يحب الله ويمقت ما فعلت، هذا مؤشر حسن ومن المهم العناية بهذا الشعور، لأن هناك من الناس من طُبع على قلبه فلا يشعر بالذنب،

وكما كان يقول السلف المؤمن إذا تلطخ بذنب فهو كالطير إذا ابتلّت جناحه فإن يستمر في الرفرفة بجناحه إلى أن ينشف، فالطير لا يستسلم للماء الذي أصابه، بل يحاول إلى أن يخف وزنه ويطير، وهكذا يجب أن يفعل الإنسان إذا أصاب الذنب.

الفائدة الثانية:

هناك قاعدة شرعية تسمى (سدّ الذرائع) وهي تحوي المحرمات وكل ما يؤدي للمحرمات،

ولذلك فإن الله سبحانه لما حرّم على آدم الأكل من الشجرة فإنه لم يحرم الأكل فقط، وإنما حرم حتى الاقتراب منها (ولا تقربا هذه الشجرة)، لذلك عندما يعظم الحرام عند الله عز وجل فإنه سبحانه لا يحرمه بعينه فقط، وإنما يحرم حتى دواعيه ومقدماته وما يقرب منه،

مثل ذلك قضية الزنا، فلمّا كان من الكبائر ما حرّم الزنا بعينه، وإنما حرم مؤشراته ودواعيه من النظر واللين في القول وحتى ضرب الخلخال، وهذه كلها أشياء صغيرة ولكن القرآن يأمرنا أن كل ما يوصل للحرام فالأولى أن يكون هو حرامًا أيضًا..

ومثل هذا في الخمر وما يُسكر، فالقاعدة النبوية (ما أسكر كثيره فقليله حرام) فالقضية ليست بالكم، إنما هو يضع

لك حدًا عند كل ما يمكن أن يقود أو يؤدي للتمادي والوصول للحرام، فربع الكأس الأول قد يكون بداية المزلق للشرب الكثير، ومتى ما زلقت رجل الإنسان فلن يستطيع أن يتوقف،

ولذلك هذا الباب (باب سد الرائع) مهم جدًا أن يسوس الإنسان فيه نفسه؛ لئلا يتمادى، فإذا كنت تعرف أن مكانًا ما يشجعك على الحرام، أو مجموعة ما أو صحبة ما تشجعك على الحرام فابتعد عن هذا المكان، وتذكر الرجل الذي قتل مئة نفس، لما ذهب إلى العالم قال له إن قومك قوم سوء فاذهب إلى قوم آخرين فاعبد الله معهم، يعني أخبره أنك أنت مستمر في القتل لأن قومك قوم سوء يستفزون أسوأ ما فيك، إذن ما الحل؟ الحل ليس أنك تتوب وتقعد معهم، فإذا أنت تبت ولازلت مع هؤلاء الملطخين بالمعاصي فأنت جزمًا سينالك شيء منهم فابتعد عنهم إلى تلك القرية، فكانت القصة المعروفة.

الفائدة الثالثة:

أن تعرف شؤم المعصية! فإبليس كلّ ذنبه أنه ترك السجود لما أمره الله به، ثمّ حكّم عقله فقال أنا خير منه خلقني من نار وخلقه من طين! لأجل هذه المعصية حصل لإبليس ما حصل!

فما ظنك بأناس لا يتركون سجدة بل يلهون عن صلوات كاملة، أو يجمعونها بعد التأخير! وما ظنك بأناس يقرؤون الأمر في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) و (قل للمؤمنات) فلا يفعلون ولا يأتمرون!

يحكمون عقولهم في أمر الله عز وجل، فإذا قرأت آية الحجاب ترى أن الحجاب هو حجاب القلب، والمهم أن يكون من الداخل نظيف ولا يهم كيف هو خارجي فألبس كيفما أشاء! تفعل كل هذا متجاهلة أمر الله، ومحكمة هوى نفسها، قال الله عزوجل:" أرأيت من اتخذ إلهه هواه".!

فمهم جدًا أن تعرف شؤم المعصية ففي القصة أيضًا فإن آدم لم يأت بذنب قتل، ولا زنا ولا شرب للمسكر، كل ما في الأمر أنه ذاق، فقط ذاق! فكان عقابه أنه هبط من الجنة،

فلينتبه كل واحد منا لأفعاله وذنوبه ولا يظنن بنفسه أنه في مرتبة أعلى وأفضل من مرتبة آدم عليه السلام، وأنه مهما فعل فإن الله غفور رحيم!

قال ابن القيم: "**لُعِنَ إبليسُ وأُهْبطَ من منزل العزِّ بتَرْكِ سجدةٍ واحدةٍ أُمِر بها، وأُخْرِجَ آدم من الجنَّةِ بلُقمةٍ تناوَلَها**". فلا يوجد أحد من ذرية آدم بعده هو فوق الثواب أو العقاب، بل كل يأخذ جزاءه، كما جازى آدم من قبل: قال تعالى ﴿قُلنَا اهبِطوا مِنها جَميعًا ﴾ [البقرة: ٣٨].

فحدود الله وشرائعه لا عبث فيها، فالله أمر بقتل الزاني المحصن أشنع القتل وهو قتل الرجم إلى أن يموت وذلك مقابل شهوة ساعة! فتخيل الزنا كم كان وقته؟ ربع ساعة؟ نصف ساعة؟ ومع ذلك يُقتل بأبشع أنواع القتل حيث أنه متّع جسده بهذا الحرام!

وكذلك في السرقة أمر بأن تقطع اليد في ثلاث دراهم،

لأن هذه حدود ولا تستقيم البشرية من غير هذه الحدود، ولنعرف أن الشرع ليس لعبًا، وأن الله سبحانه الرحيم الغفور وهو أيضًا شديد العقاب غيور على حرماته،

قال تعالى: ﴿نَبِّئ عِبادي أَنّي أَنَا الغَفورُ الرَّحيمُ*وَأَنَّ عَذابي هُوَ العَذابُ الأَليمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]

ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: «يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»[أخرجه ابن ماجه في سننه، وقال الألباني: صحيح] ومحقرات الذنوب هي الذنوب يفعلها الرجل يحتقرها!

وفي الحديث أيضاً: عن جابر، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[أخرجه مسلم، صحيح] يعني الشيطان رضي أنك لا تفعلين الكبائر، رضي أنك ما تزنين ولا تسرقين، ولكنه رضي بالذنوب المحقرات الصغار التي تحتقرينها أنت! لماذا رضي بها الشيطان؟ لأنه علم أن هذا الذنب الذي نحقره كثيرًا ما نكرره فنكون خرجنا باليوم بأربعمئة ذنب أو خمسمئة ذنب! ما بين همزات ولمزات وما بين نظر إلى عورات وما بين سماع شيء من الحرام، وهكذا تتراكم الذنوب التي ترينها صغيرة وعليك الحسبة كيف سيكون هذا الشيء الصغير مع تراكمه كبير ولهذا يرضى الشيطان!

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُنَهُ» وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا. [أخرجه أحمد في مسنده، وقال الألباني: صحيح لغيره]

فيجتمع الذنب على الذنب الصغير على الصغير حتى يهلكن هذا الرجل، وأين مشكلة محقرات الذنوب؟ هي كما قال ابن مسعود : "إن المؤمن يرى نفسه كأنه قاعد تحت أصل جبل يوشك أن يقع عليه"، فتخيلي أنتِ، مشاعركِ لو كنتِ تحت جبل كيف يكون شعورك؟ هناك شيء عالي مرفوع كأنه الجبل فوقك، ستظلّين طول الوقت رافعة عنقك وعيناك إليه تخشين أن يسقط عليكِ، لأنك تشعرين بشؤم الذنب،

وهناك فرق بين هذا الإنسان الذي يتعامل مع ذنبه أنه عظيم فبمجرد فعله يؤنبه ضميره فيلهج بالدعاء يا رب سامحني يا رب اغفر لي، وبين إنسان آخر مثله كالمثل الذي أكمل به ابن مسعود حديثه السابق: يقول ابن مسعود : "المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت أصل جبل يخاف أن يقع عليه، والفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا"،

فهو يفعل الذنب وبمجرد أن ينتهي منه ينساه كأنه محاه، لا رجفة في القلب ولا خوف من المعصية، يرى ذنوبه أنها سهلة وبسيطة وأنها ليست من الكبائر هي فقط قليل من الصغائر ومحقرات ذنوب!

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ المُوبِقَاتِ»[أخرجه البخاري، صحيح]

يقول هذا الكلام لمن؟ يقوله للتابعين في القرن الأول من الإسلام الذين قال عنهم النبي عليه الصلاة والسلام: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"! وتخيلوا التشبيه "هي أدق في أعينكم من الشعرة" يعني ذنب صغير ومحتقر!

قال بلال بن سعد : **لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن أنظر إلى عظمة من عصيت**،لا يغرّنك أن ذنبك صغير، فآدم قبلك ذاق الشجرة فقط، وإبليس امتنع عن السجود! ومشكلة إبليس ليس فقط أنه لم يسجد! بل المشكلة في قوله: (لا) لربك؟

ونحن نستنكر ما فعله إبليس، لكن تأمل نحن كم مرة بتعاملاتنا مع الله نقول لا؟ وكم مرة نعرف أن هذا الشيء حرام ونفعله ونذهب له؟ وكم مرة نعرف أن هذا الشيء لا يجوز أصلاً؟ ومع ذلك نفعله مع سبق الإصرار والترصد، فلنتفكر ما الشيء الذي اختلفنا فيه عن إبليس؟ إبليس قال لا، ما أراد فعل الأمر! وهذا نفسه ما نفعله نحن الآن! ففي كل أمر من أوامر الله عز وجل نعرف أنها يجب أن تؤدى، ثم لا نفعلها، نحن باختصار أفعالنا تقول لا يا رب لا أريد أن أفعل أوامرك..

من المواقف أيضًا التي تذكرنا بشؤم المعصية المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها، قد تراها من محقرات الذنوب ولكن هي الآن تتقلب وتُشوى في النار بناءً على ردة فعل غاضبة من هرة إما ملّت منها أو ربما عاقبتها، فلا هي التي أطعمتها ولا هي التي دعتها تأكل من خشاش الأرض، فبمجرد ردة الفعل القاسية تجاه حيوانٍ ما، جعلها في النار تتعذب تدفع ثمن تلك اللحظة، (دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض)، ولذلك كم من المواقف قد ندفع ثمنها ومن دون ما نشعر! عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «... وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[أخرجه البخاري، صحيح]

وهذا يذكرنا بموقف عائشة رضي الله عنها لما كانت تصف امرأة، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ غَيْرُ مُسَدَّدٍ: تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ» قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: «مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا»[أخرجه أبو داود في سننه، وقال الألباني: صحيح]

فقدر الكلمة في الإسلام عظيم! حتى لو كانت مزحة، مزحة على شرع الله أو على أحد متمسك بسنة الله عز وجل أو مزحة من مزح الناس، أو مسلسل كله مزح على شرائع الله عز وجل أو غيرها، أو برنامج يتهكم بشرع الله عز وجل أو غيره كلها تدخل في الحديث: "يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً"،

ويدلل على تفاهة الكلمات أنه ألقاها من غير تفكير بل جاءت على طرف لسانه، وما ألقى لها بالا، فما أعدّها من ذنوبه أصلًا ولكنها تلك الكلمة زجت به في النار سبعين خريفاً، سبعين سنة يدفع ثمن تلك الكلمة التي خرجت من طرف لسانه التي ما ألقى لها بالاً ، إذن علينا دومًا تذكر شؤم المعصية لو فعلها الإنسان.

لماذا النبي عليه الصلاة والسلام يحذر من هذه المحقرات؟ لأنها هي باب إلى العظائم.

فهناك أشياء تشعر أن بينك وبينها مسافة كبيرة فلا يمكن أني أنا أفعل هذا الشيء، وترى أنها كبيرة من الكبائر، لكنك كل ما فعلت محقرات الذنوب والصغائر فإنك تمهد الطريق لتلك الكبيرة، وصارت تلك الكبيرة تصغر تصغر في عينك إلى أن تصبح هذه الكبيرة عندك هي صغيرة أيضًا من ضمن الصغائر والشيطان لا يزال يصغرها في عينك.

الفائدة الرابعة:

أن بعض الذنوب قد تكون خيرًا على صاحبها فأحيانًا يكون الشخص على مرتبة من الإيمان عالية، ثم يفعل الذنب فيعرف تقصيره، ويدرك أن نفسه التي كان يظن أنها تقيّة صالحة أنها أمّارة له بالسوء ويدرك أنه كان فيه عُجبًا أو خيلاء، فحينها إما أن يتوب ويعود فيرجع على ما كان عليه.

وإما أن يستمر في ذنبه فإذا استمر في ذنبه فإذا هو أسوأ مما كان.

وهناك من الناس من يتوب ويندم فيعود للعمل الصالح مثلما كان، ولا يكتفي بذلك فلا يزال ذنبه بين عينيه يؤرقه ولا يزال يريد أن يعمل من الصالحات أكثر ليمحو ذلك الذنب الذي اقترفه، فيفعل الخير مرات ومرات،

وهذا يذكرنا بموقف عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لما دخل في نقاش مع النبي عليه الصلاة والسلام في شروط صلح الحديبية وكان يرى أن الشروط مجحفة في حق المسلمين، حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو وَائِلٍ، قَالَ: كُنَّا بِصِفِّينَ، فَقَامَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ، وَلَوْ نَرَى قِتَالًا لَقَاتَلْنَا، فَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: «بَلَى». فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا»، فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»[أخرجه البخاري، صحيح]

يعني لماذا نرضى يا رسول الله بشرط من يأتي مسلمًا منهم إلينا نرجعه للكفار، ومن يأتي كافرًا منا لا نرجعه؟ أحسّ أن في هذا إجحاف!

فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: هو ربي ولن يضيعني. بعد ذلك عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- يقول أنه وعى على نفسه كيف أنه كان يناقش النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الطريقة والرسول يوحى إليه؟ فأحسّ أن هذا ذنب، يقول عمر-رضي الله عنه- فعملت لذلك أعمالاً فلا زلت أرى خيرها، يعني أنه أكثر من أعمال الخير لتمحو ذنب ذلك الموقف..

وما هو الذنب لو تفكرنا؟ لقد كان يريد الأفضل للمسلمين في رأيه وفي ظنه، لم يكن نقاشه مع النبي أنه ما يريد الجهاد، أو توقف الحرب، أو يريد الحلول الأسهل، لا بل كان لمصلحة الإسلام في رأيه..

لذلك هناك من الذنوب أو الزلّات تجدينها دائمًا في طريقك، قد تكون موجودة لتذكرك بالله عز وجل وبالعودة إليه والاعتصام به والتوكل عليه وعدم التوكل على النفس وعدم الاعتداد بالنفس وليريك الله حجمك الحقيقي وأنك ولولا عصمة ربي لك لكنت ممن يعود وينغمس به كل مرة.

الفائدة الخامسة:

الذي أنقذ آدم-عليه السلام-وأهلك إبليس هي قضية الاعتراف بالذنب، فآدم-عليه السلام- اعترف مباشرة: قال تعالى:(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا). [الأعراف:٢٣]

وإما إبليس قال: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) ولم يعترف بأنه أذنب،

إذًا فهذا الاعتراف بالذنب مهم جداً، وهذا الذي عليه الحرب اليوم، اليوم هناك من يحارب فكرة الاعتراف بالذنب، يريدون ممن يعصي الله أو تنزلق قدمه في شيء من المحرمات ألا يشعر بالذنب أو بالتقصير، بل صار كل تغيير يجعلونه تحت مفهوم وجهة النظر والقناعة الشخصية والمنطقية، فالإحساس بالذنب يريدون أن يصادروه لأن الإحساس بالذنب إذا حضر فمعناه أن هذا الإنسان سيعود إلى ربه ولو طال الزمان. لأن هناك حبل بينه وبين الله لم ينقطع،

يقول الله عز وجل:(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ).[الأعراف:٢٣]. فالله عز وجل اجتباهم لما اعترفوا بذنبهم.. قال العلماء: "سعد ابن آدم بخمسة أشياء: اعترافه بذنبه، وندمه عليه، ولومه لنفسه، ومسارعته بالتوبة، وأنه لم يقنط من رحمة الله". والخمسة هذه لم تكن لإبليس فهو لم يعترف بذنبه فلم يندم فلم يلم نفسه فلم يتب منه ثم قنط من رحمة الله.

حتى أن الله سبحانه استجاب لإبليس طلبه لما قال: (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ). [الأعراف:١٤]. فقال تعالى له: (إنك من المنظرين). [الأعراف:١٥]. ولم يكن طلب إبليس من الله الرحمة أو المغفرة لأن من سوء نفس إبليس لم يوفقه الله لطلب ذلك.

أما آدم-عليه السلام- اعترف بذنبه فغفر الله له، ولذلك حافظي على حياة قلبك ولا تسمحي لأحد أن يصادر منك الشعور بالذنب.

وأذكر قصة لواحدة من البنات، كانت منقبة وخلعت نقابها، تقول كنت أجلس مع البنات وأنا أحس بالذنب، وتقول لهم أني ما أشعر أن ما فعلته صحيح وأتمنى أن الله يوفقني وأعود أتنقب مثلما كنت، فصاروا يناقشونها وأن ما فعلتيه عادي وصحيح، ومن قال لك أن النقاب واجب، وما زالت هي تشعر أنها وإن كشفت وجهها ولكن هذا ليس هو الأفضل ولا الأعف والأستر والأحب إلى الله و الأرضى له، وآيات الحجاب من يقرأها بعلم ومن يتدارسها ومن يقرأ أي كتاب في فقه الحجاب يعلم أن هذا هو الأوجب، لكن هؤلاء لا يريدون أن تشعري حين تفعلي الخطأ حتى بمجرد الذنب.

وهذه مشكلة كبيرة لأن إبليس إنما هلك حينما هلك لأنه لم يعترف بذنبه ولم يندم عليه.

وكل من يسمع لأحاديث محقرات الذنوب سيرى أن الأمر ليس بالهين، وأن الأمر شديد، ولكن هناك في حديث آخر حديث قدسي عن الله سبحانه وتعالى: عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً " [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح]

فالقضية ليست بالكم، فما يهم عدد ذنوبك هي ٤٠٠ أو ٥٠٠ ذنب أو أكثر! حتى لو بلغت عنان السماء فالله يغفرها، لكن القضية أن تعترف بذنبك وأن تعود عبدًا إلى ربك وتعرف أن الله عز وجل هو مولاك وهو الذي يغفر لك ذنبك، أما متى اجترأت على الله وما اعترفت بذنبك ولا ندمت عليه ولا تبت عنه فهنا قد بلغت مرحلة القنوط، ولذلك يلحد من يلحد بعد فعل الذنوب وفقدان البوصلة للعودة، فأغلق أمام عينيه باب التوبة، فيؤدي به الحال لأن يكفر بهذا الدين كله.

فالإنسان مهما فعل عليه ألا يقنط من رحمة الله. ولذلك العبد يذنب ثم يعود إلى ربه فيقول يا رب أذنبت ذنبا فاغفر لي فيغفر له، ثم يعود فيذنب فيقول: يا رب أذنبت فاغفر لي فيغفر له، فلم يزل الرجل يذنب ويعود إلى ربه حتى قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يؤاخذ بالذنب ويغفره قد غفرت لعبدي فليفعل عبدي ما شاء.

هذا الامتحان الذي كان يمتحنه الله عز وجل لهذا العبد، الذي تهزمه نفسه كل فترة أمام ذنب من الذنوب، فالله يمتحن إيمانك هل ستتعايش مع الذنب وتعيش عليه؟ وإلا سترجع في كل مرة وتقول لا يا ربي أذنبت أنا لست راضي بهذه الحياة؟ فيعود فيغفر الله له عز وجل حتى جاءته المغفرة الكاملة.

الفائدة السادسة:

أن نعلم أن الشيطان عداوته خالدة إلى يوم الدين قال: كما قال تعالى: (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ). [الأعراف:١٤]. فالشيطان معنا إلى يوم البعث وهو يجري منا مجرى العروق يعني يدخل فيوسوس، والوسوسة هذه تدخل من غير ما نشعر يقول الله عز وجل: قال تعالى: (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ). [الأعراف:٢٧].

فالشيطان وجنوده الشياطين الصغار والكبار، مردة الجن كبار صغار، يروننا ونحن لا نراهم، فيوسوس الشيطان لكل منا وهو يعلم نقطة ضعفه، فيدخل إليه حيث يضعف ويزينها ويكبرها حتى يقنع الإنسان أنه لن يكون سعيدا ومرتاحا إلا بفعل هذا الذنب، فيجعل الدائرة عليه وكأنه من دونه محروم وناقص، وهذه هي عداوة الشيطان لبني آدم، ولذلك يقول الله عز وجل (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) [سورة فاطر٦]

الفائدة السابعة:

قال الله عز وجل: (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) [سورة الأعراف٢٦] وهذا الحين لابد أن ينتهي، فكم سنعمّر؟ وكم سنخلد؟ ولذلك (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) [سورة فاطر٦]

وهذه الدنيا قصيرة والموت أقرب للإنسان من شراك نعله، فلماذا ما نزال نؤجل قراراتنا بالتوبة والعودة وترك ما نحن عليه من ذنوب؟

الفائدة الثامنة:

هناك ارتباط وثيق بين الباطن وبين الظاهر، ولذلك قال الله عز وجل (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) [سورة الأعراف١٥٣] ويقول الله عز وجل (قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ) [سورة الأعراف٢٦]

فلباس الدنيا يتلف ويذهب، ولا يبقى لنا سوى لباس الآخرة (وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ) [سورة الأعراف[٢٦] هذه الآية قال فيها العلماء أن هناك التزام بين الظاهر والباطن، لذلك لا يوجد إنسان يقول أنا أحب الله في داخلي وظاهره كله لا يعكس ذلك، يعني من مظهرها الخارجي لا توجد فيه ولا علامة واحدة تدل أنها تحبّ الله ولكن تقول أن قلبي من الداخل مؤمن وتقي وأخاف الله عز وجل، ولكني لا أفعل شيء في الظاهر يدل على أني أحب الله، وهذا لا يصحُّ أبدًا..

فلو رأيت شخصا شاحب الوجه، عيناه مرهقتان ومحمرتان، جسمه نحيل ومحدودب، فبالتأكيد ستتوقعين كم يعاني من علل أدّت لهذا الشكل الماثل أمامك، وهذا نفهمه بشكل فيزيائي منطقي عقلاني،

وكذلك لو أتينا للإيمان؛ فلماذا نفصل بين الظاهر والباطن في الإيمان؟ الإيمان ما كان ولن يكون يومًا مجرد أمر روحي في القلب، وابحثي عن تعريفات الإيمان في كتب العقيدة كلها، لن تجدي أن الإيمان ما وقر في القلب. ونقطة بعدها. بل التعريف الذي حفظناه منذ طفولتنا أن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل فهو قول باللسان وعملٌ بالجوارح، فجوارحك كلها يجب أن تأتمر بأمر الله عز وجل، وأي إنسان يعتقد أن عليه التصديق بالقلب فإيمانه شابه إيمان إبليس، فحتى إبليس يعلم أن "لا إله إلا الله" ويعلم أن هناك جنة ونار وثواب وعقاب، ولكنه لم يعمل بهذا التصديق..

فالقضية هي عدم الفصل بين الإيمان القلبي وبين الإيمان الظاهري، وهذا الأمر مقصود بشدة اليوم ليقنعوك أن ظاهرك ليس له علاقة بباطنك، فالبسي ما شئت واسمعي ما شئت طالما أن الإيمان محله القلب!!

وإليكم حديث آخر يدل على أن عمل الظاهر يؤثر على الباطن، قال النبي عليه الصلاة والسلام (عِبَادَ اللَّهِ، لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّه بيْنَ وجُوهكُمْ) يعني إن ما سُوّيت الصفوف في الصلاة فإن هذا يؤثر على القلوب فتختلف قلوب المصلّين،

وكذلك موقف آخر لما رأى النبي عليه الصلاة والسلام الصحابة رضوان الله عليهم في واحدة من سفراته وقد تناثروا لما نزلوا من القافلة فكل واحد ذهب لمكان، قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام (إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ في الشِّعَابِ والأَوْدِيَةِ إِنَّما ذَلِكُمْ مِنَ الشيطانِ) فلم يزل الصحابة من بعدهم مجتمعين حتى لو بُسط لهم رداء لكفاهم، لذلك كل ما اجتمعت الأجساد كل ما اجتمعت القلوب.

الفائدة التاسعة:

كشف العورات من العقوبات التي ضربت على بني آدم، وهناك التزام ظاهر بين الحياء والإيمان، والحياء من شعب الإيمان، والحياء لا يأتي إلا بخير، فالتعري ليس أمرًا عاديًا ولن يكون في يوم ما أمرًا طبيعيا! وما نشاهده من تكشف للعورات من فخذ أو ظهر أو صدر في المجالس والأعراس كلها لها علاقة بالعقوبة التي ضربت على بني آدم.

الفائدة العاشرة والأخيرة:

أن نعلم إن آدم عليه السلام ما اجتباه الله إلا حينما سارع بالتوبة، فعلى الإنسان أن يعترف بذنبه ولكن عليه أيضًا المسارعة بالتوبة، وأن تسأل الله ياربي اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، اسألي الله أن يتوب عليك اسألي الله أن يوفقك إلى التوبة "يارب انصرني وأعنّي ويسر الهدى لي.. وهذا من الأدعية التي يستحب للمرء أن يدعو الله بها دومًا أن ينصره على نفسه.

كانت هذه عشرة فوائد سريعة من قصة آدم عليه السلام، وأسأل الله أن يجعلنا من المعترفين بذنوبهم وأن يعصمنا من الفتن ومن الذنوب ظاهرها وباطنها وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها وخير أيامنا يوم نلقاه.

هذا والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها